الكلمة، واغتيال الشخصية! (*)

أدوات القتل والاغتيال عديدة، يحدثها السلاح الأبيض والسلاح النارى، وتحدثها القذائف والقنابل، وتحدثها العصى والشوم والسموم.. بيد أن اغتيال الشخصية لا أداة له إلاّ "الكلمة ".. الكلمة التى نزلت بها رسالات السماء، وحملت أحاديث ومواعظ ونورانيات الرسل والأنبياء، وحفظت تراث البشرية، وأقامت وتقيم التواصل بين الناس، وبها ترانيم الشعراء وإنشاد المنشدين، وصياغات الكتب والآداب والفنون والمسرح والقصة والرواية وكافة العلوم الوضعية والإنسانية.. هذه الكلمة هى وحدها القادرة على اغتيال الشخصية التى لا تقدر عليها أمضى الأسلحة فتكا وحصدا للأرواح وإهلاكا للأبدان، ومع أن "الكلمة" لا نصل لها ولا منجل ولا شظايا، فإنها الأداة الوحيدة القادرة على اغتيال الشخصية CHARACHTER ASSASINATION.

هذه الصلاحية "المزدوجة" للكلمة، بناءً أو تدميرا، إحياءً أو إهلاكا، هى التى استدعت الاحتفاء القرآنى بها، وهى التى وراء الالتفات إلى دورها الطيب ودورها الخبيث، وهى هى التى لفتت ولا تزال تلفت إلى أن استعمالها مرهون بغايته، وهذا الاستعمال الهادف أو الغائى هو الذى يرتفع بالكلمة الطيبة إلى أعلى عليين، وهو هو - الاستعمال المتدنى! - الذى يهبط بها إلى الدرك الأسفل فتصير بفتكها وانحرافها وجنوحها فى أسفل سافلين.. هذا التأرجح المردود

---

* ٢٠٠٦/٥/١٨.

إلى الإرادة الآدمية، هو مرجع ما للكلمة من صلاحية عريضة بل متنافرة بين غاية النقيضين المتضادين!

الشخصية التى نتحدث عن اغتيالها بالكلمات، ليست محض الكيان الجسدى طولا وعرضاً وأنفاسا، فذلك مما تشترك فيه جميع الكائنات.. الشخصية هى الكيان الحى الأدبى المعنوى الشامل لمجموعة الصفات والمناقب والشمائل والخصال والسجايا، وهذه المجموعة حصاد مكونات خلقية وإضافات حياتية تدين إن دانت عبر كدح ونصب، وتشكل فى مجموعها صورة الشخصية وسمعتها فى نظر الناس والمجتمع.. تدمير أو اغتيال هذه الشخصية أمرّ وأمضى من القتل والإعدام.. هذا أو ذاك قطع لرحلة العمر، أما امتداد الشخصية فهو لا ينتهى بنهاية العمر موتا أو قتلا أو اغتيالا، وإنما تبقى الشخصية بالصورة المرتسمة لها كيانا معنويا فى نظر الناس والتاريخ! أمثلة هذا عديدة فى الماضى القديم والبعيد، وفى الحاضر أيضا..

اغتالوا حياة سقراط بإجباره على تجرع السم، ولكن "شخصية" سقراط لم تمت بمماته، ولم تنقض بانقضاء عمره وأيامه المعدودة فى الدنيا، فظلت الشخصية حية، لا ينقطع عطاؤها، فلا تزال فلسفته وأفكاره ومحاوراته التى استلهمها أفلاطون، وحياته التى سجلها، وسجلها إكسانوفون فى مذكراته - مددا يشبع أشواق المعرفة والفكر والتأمل عبر القرون من القرن الخامس قبل الميلاد وحتى الآن!

لم تنته شخصية الفاروق عمر بن الخطاب بخنجر أبى لؤلؤة المجوسى، بل عاشت شخصيته عبر القرون مثالا حيّاً للعدل السامق والاستقامة الجادة الرفيعة، وعاشت هذه المناقب مدداً للكتاب والباحثين وإلهاما للأدباء والشعراء.. لم يطفئ مر القرون من وهجها، فجعل شاعر النيل حافظ إبراهيم يتمثلها وهو يتذكر إعجاب صاحب

كسرى بزهد وبساطة هذا العظيم، فطفقت قريحة حافظ تتغنى بعظمة هذه الشخصية وتصوغ مقولته فى الفاروق شعراً: أمنت لما آقمت العدل بينهم.. فنمت نوم قرير العين هانيها.

لم يكن نصيب الإمام على بن آبى طالب فى خلود شخصيته رغم طعنة ابن ملجم الغادرة، بأقل من نصيب الفاروق، فلا يزال قبره مزاراً، وحياته قدوة تهفو إليها عبر السنين أرواح وأفئدة الملايين!

فى ٣٠ يناير ١٩٤٨ اغتيل العظيم غاندى وهو يؤدى الصلاة بذريعة أنه يضحى بمصالح الهنود لإرضاء المسلمين.. مات غاندى بحساب السنين والأعمار، ولكن بقيت شخصيته بعناصرها وعطائه إلهاماً حياً نابضا لحركات الشعوب المقهورة.. لم يسحب الاغتيال رصيد شخصيته التى تشكلت بكدحه وكفاحه الطويل وتحمله الأهوال وعطائه المثمر وتحريكه أمته وترويعه سلطات الاحتلال بغير سلاح إلاّ مقومات هذه الشخصية الفذة التى لم ينجح اغتيال جسدها فى اغتيال شخصيتها!

ضحايا اغتيال الشخصية لا يقعون تحت حصر، صحت حجة الاغتيال أم أخطأت سبيلها.. لم تكن الكلمات التى اغتالت من اغتالت من الشخصيات على الحق والصواب فى كل الأحوال.. أكم هائل من مظاليم تلقوا طعنات الكلمات وقذائف المفتريات وهم أبرياء مما رموا به!.. منهم معروفون فى صفحات التاريخ، ومنهم بسطاء لم يخرجوا من نطاق الاسمية أو الرقمية.. قليلون منهم من افلحوا فى لملمة أشلاء شخصياتهم المغتالة زورا وافتئاتا بغير حق وتصحيح صورتها، وكثيرون هم من طووا جوانحهم أو انطووا على جراحهم الجائرة الغائرة ـ لأنهم لا يحسنون أساليب الكلام أو لا يملكون وسائل وأدوات وصفحات الرد، ولأن الناس فى كل الأحوال تحسن الإنصات بشغف وترحيب إلى الطعنات واللعنات، يشبعون بها غليلاً لا يرتوى للغيبة والنميمة، ويضيقون فى الوقت نفسه ببراهين البراءة

لأنها لا تشفى غليلاً وإنما تقتطع من غليلٍ ارتوى سالفا على الأكاذيب والمفتريات!

لولا أن ذكر الأمثلة يسئ ويحرك مواجع المرزوئين بهذا الاغتيال للشخصية، ويجدد المواجع وربما زاد فى دائرة الفاحشين الذين يتلذذون بنهش الشخصيات والأعراض، لولا ذلك لذكرت أمثلة عديدة بالاسم.. منهم من أصابته مرارة فانزوى واعتكف، ومنهم من لم يحتمل فانكسرت نفسه واعتزل الناس والحياة وإنقطع رجاؤه فى الدنيا وانقطع رجاؤها فيه، ومنهم من حوله الظلم الذى لم يدفعه عنه أحد إلى ظالم بدوره، لا يؤرقه أن ينضم إلى مواكب اللعانين الشتامين والخائضين بغير حق فى الأعراض - يعزى نفسه بأن هذه هى الدنيا، وبأن المجتمع الذى تخلى عنه ورحب بالظلم الذى وقع عليه أو سكت عن إيقافه ورده عنه، ليستحق أن يناله من الطعن والقذف والنهش ما ناله هو دون أن يهتز لأحد جفن ولا رمش!!

الكلمة أمانة كبيرة، لا يدرك ثقلها إلاّ من يدرك قيمتها إدراكا مجدولا بضمير حى وإحساس مرهف وإيمان عميق بالمسئولية التى إليها صيانة الحرية فى حصن حصين تتوازن فيه الحقوق فى غير جور ولا تحيف!